إضاءات نقدية (مقالة محكمة)
السنة الرابعة عشرة ـ العدد الخامس والخمسون ـ خريف ١٤٠٣ش/أيلول ٢٠٢٤م
https://doi.org/10.82401/roc.2024.1207771
صص ١٣١ ـ ١٠٩

تحليل الخطاب النقدى لرواية "*يوتوبيا*" لأحمد خالد توفيق فى ضوء نظرية تيون فان دايک

جابر امام زاده (الكاتب المسؤول)*
أبوالحسن أمين مقدسى**

الملخص

يتناول هذا البحث تحليل روايـــة يوتوبيا للكاتب أحمد خالد توفيق من منظور التحليل النقدى للخطاب، بالاعتماد على الإطار النظرى الذى طوره تيون فان دايک، ويســـعى إلى تبيان كيفية استخدام الخطاب لبناء علاقات قوة غير متوازنة وترسيخ الفجوة الطبقية بين سكان يوتوبيا (الطبقة الثرية) والآخرين (الطبقة المحرومة). تعتمد المنهجية المتبعة على تحليل البنى الخطابية الكلية والجزئية، ودراسة استراتيجيات تمثيل الذات والآخر، وتحديد الأيديولوجيات المضمرة فى السرد. يتركز التحليل على المشاهد الرئيسية فى الرواية، مثل الأوصاف المتناقضة للعالمين، وصورة شخصيات الطرفين، ومشهد "الصيد" كتجسيد للعنف الموجه ضد الآخر. وقد كشف تطبيق نموذج المربع الأيديولوجى لفان دايک فى تحليل النص عن استخدام الكاتب لاستراتيجيات أيديولوجية، وتمثيله للامساواة الاجتماعية فى البنية السردية. والجدير بالذكر فى يوتوبيا أن كلا الطرفين (سكان يوتوبيا والآخرون) يشاركون فى بناء هذا المربع الأيديولوجى، حيث يسعى كل منهما إلى تقديم صورة إيجابية عن ذاته وتشـــويه صورة الآخر؛ وهو ما يعكس تبادلاً للصور النمطية وترسيخاً مزدوجاً للشقاق الطبقى. يخلص البحث إلى أن اللغة فى يوتوبيا ليســـت محايدة، بل تُستخدم كأداة للهيمنة الرمزية، إذ تساهم فى نزع الإنسانية عن "الآخر" وإضفاء الشرعية على ممارسات العنف فى عالمها الديســـتوبى. ويكشف الكاتب من خلال الخطاب بين الطبقات عن بنى العنف الرمزى فى المجتمعات المعاصرة، ويجعل من اللغة مرآة تعكس الظلم الطبقى والسياسى.

الكلمات الدليلية: يوتوبيا، أحمد خالد توفيق، التحليل النقدى للخطاب، تيون فان دايک، السلطة،الأيديولوجيا.

*. حاصل على شهادة الدكتوراه فى اللغة العربية وآدابها، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران، طهران، إيران jaber.emamzadeh@ut.ac.ir
**. أستاذ فى قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران، طهران، إيران

تاريخ الاستلام: ١٤٤٦/١٢/١٩ق تاريخ القبول: ١٤٤٧/٠١/٢٠ق

المقدمة

تعد رواية يوتوبيا للكاتب المصرى الراحل أحمـــد خالد توفيق(٢٠١٨-١٩٦٢م)، علامة بارزة فى أدب الديستوبيا العربى المعاصر، وقد حظيت باهتمام نقدى وجماهيرى واســـع نظرا لتصويرها الجرىء والمقلق لمستقبل ممكن. تقدم الرواية صورة قاتمة لمجتمع منقســـم إلى طبقتين منفصلتين تماما: يوتوبيا، المدينة الفاحشـــة الثراء والمعزولة خلف أسوار وحراسات مشددة، والتى يعيش سكانها حياة مترفة وفارغة تصل إلى حد الملل القاتل والبحث عن أى شـــكل من أشكال الإثارة حتى لو كانت وحشية؛ وفى المقابل، "العالم الخارجى" أو "الأغيار"، حيث يعيش المهمشون فى فقر مدقع وظروف لا إنسانية، محرومين من أبســـط مقومات الحياة. تستكشف الرواية بعمق إشكاليات محورية تتمثل فى التفاوت الطبقى الصارخ، والعزلة الاجتماعية والنفســـية، والآثار المدمرة لتجريد الإنسان من إنسانيته، ســـواء كان ذلك تجريدا للآخر المضطهد أو تآكلا لإنسانية الفئة المهيمنة ذاتها.

فـــى ظل هذا العالم المتشـــظى، يبرز دور اللغة والخطاب كأداة فعالة فى تشـــكيل التصورات وترسيخ الهيمنة. ومن هنا، ينطلق التساؤل الرئيسى لهذا البحث: كيف يسهم الخطـــاب فى رواية يوتوبيـــا فى بناء علاقات القوة غـــير المتكافئة والأيديولوجيات المهيمنة، وفى تعزيزها وإضفاء الشرعية عليها؟

تسعى هذه الدراسة إلى الإجابة على هذا التساؤل المحورى من خلال تطبيق أدوات التحليل النقدى للخطاب، وبالأخص الإطار النظرى الذى قدمه تيون فان دايک. يهدف هذا البحث إلى كشـــف الآليات اللغوية والسردية التى من خلالها يتم تشكيل الواقع الاجتماعى، وتبرير الهيمنة، وتطبيع الظلم فى عالم الرواية. ســـنركز على كيفية توظيف استراتيجيات تمثيل "الذات" الإيجابية (ســـكان يوتوبيا) و"الآخر" السلبية (الأغيار)، وتحليـــل البنى الأيديولوجية العميقة التى تغذى هذا الاســـتقطاب الحاد وتحافظ على استمراريته، مما يجعل من الخطاب أداة رئيسية للسيطرة الاجتماعية وإنتاج اللامساواة فى هذا العالم الديستوبى.

الدراسات السابقة

تعد نظريات تيون فان دايک، وخاصة نموذجه للمربع الأيديولوجى وتحليله لكيفية بناء "الذات" و"الآخـــر" فى الخطاب، من الأدوات المنهجية الأساســـية فى التحليل النقدى للخطاب. وقد طبقت هذه النظريات على نطاق واسع فى تحليل أنواع مختلفة من الخطابات، بما فى ذلک الخطاب السياسى، والإعلامى، والاجتماعى، لكشف علاقات القوة الكامنة وآليات الهيمنة الأيديولوجية. على ســـبيل المثال، اســـتخدمت دراسات عديدة مثل دراسة فان دايک نفسه حول الخطاب العنصرى فى الصحافة "Discourse and Racism in Spain and Latin America" إطاره النظرى لتحليل كيفية مساهمة اللغة فى إنتاج التمييز وإعادة إنتاجه، وتبرير اللامســـاواة الاجتماعية. كما تم تطبيق منهجه على نصوص أدبية لكشف الأبعاد الأيديولوجية المضمنة فيها.

أمـــا رواية يوتوبيا لأحمد خالد توفيق فقد حظيـــت باهتمام من قبل الباحثين، وإن كانت الدراســـات التى تناولتها بالتحليل الخطابى النقـــدى، وتحديدا من منظور تيون فان دايک، لا تزال محدودة. من بين الدراســـات التى تناولت الرواية من زاوية مختلفة، نجـــد مقالا بعنوان «أدب الخيـــال العلمى الاجتماعى فى روايـــة يوتوبيا لأحمد خالد توفيق» (٢٠٢٣م) للباحثين فرهنگ مفاخرى وعبد الله حسينى، والتى نشرت فى مجلة الجمعيـــة الإيرانية للغة العربية وآدابها. يقدم البحث تحليلا استشـــرافيا لرواية يوتوبيا بنـــاء على المنهج الوصفى التحليلى وبالاعتمـــاد على آراء المتخصصين فى مجال أدب الخيال العلمى الاجتماعى، حيـــث تظهر سمات هذا الفرع الأدبى بوضوح فى الرواية. وخلصت الدراسة إلى أن الكاتب قد خلق ثنائية من المدينة الفاضلة (اليوتوبيا) والمدينة الفاسدة (الديستوبيا) وعمل على تطويرها عبر الرواية ليكشف من خلالها عن الجروح الاجتماعية.

و تناولت دراسة محمود محمد السعيد أبو زهرة (٢٠٢٠م) بعنوان «ملامح الديستوبيا فى روايـــة يوتوبيا للكاتب أحمد خالد توفيق» تحليل الرواية من منظور الديســـتوبيا، مركزة على الخراب النفســـى والمادى فى المجتمع المصـــرى كما يصوره الكاتب. وقد استعرضت الدراسة مستويات الديستوبيا فى الرواية، مثل الخراب النفسى والتحول فى

العلاقات الأسرية، والخراب المادى مثل الفقر وانتشار المخدرات والقتل.

كما تناولت دراسة منتصر نبيه محمد صديق (٢٠٢١م) بعنوان «رؤية الواقع وأثرها على بناء الشـــخصية فى رواية يوتوبيا لأحمد خالد توفيق» تأثير رؤية الكاتب للواقع على تشـــكيل الشخصيات الروائية، محللة الثنائيات الضدية المرتبطة بالشخصية داخل الرواية. وقد اســـتعرضت الدراسة الأساليب التى اعتمدها الكاتب فى بناء شخصياته، مثل الوصف الاجتماعى والنفسى والمادى.

وفى دراسة ناهد عصام محمد (٢٠٢٣م) بعنوان «الإطار الزمانى\المكانى فى رواية يوتوبيا» تم تحليل الإطار الزمانى والمكانى للرواية باستخدام مفاهيم ميخائيل باختين ويورى لوتمان، مظهرة كيف يسهم الفضاء الزمنى والمكانى فى تشكيل المعنى الاجتماعى والسياسى للرواية.

على الرغم من الدراسات المتعددة التى تناولت رواية يوتوبيا من زوايا مختلفة، إلا أن تطبيق نظرية تيون فان دايک فى تحليل الخطاب النقدى لهذه الرواية يعد أمرا جديدا ومهما. فمن خلال استخدام "المربع الأيديولوجى" لفان دايک، يمكن الكشف عن كيفية تمثيل الخطاب الروائى للســـلطة والهيمنة، وكيفية تشكيل الهوية الجماعية والفردية فى سياق اجتماعى متدهور. هذا التحليل يسهم فى فهم أعمق للبنية الأيديولوجية للرواية ويقدم إضافة نوعية فى مجال الدراسات الأدبية والنقدية.

الإطار النظرى

المبادئ العامة للتحليل النقدى للخطاب (CDA)

التركيز على القضايا الاجتماعية: التحليل النقدى للخطاب لا ينطلق من اللغة لذاتها، بل من المشكلات الاجتماعية الملموسة كالظلم واللامساواة. يرى أن الحياة الاجتماعية شبكة من الممارسات المترابطة (كالتعليم أو الإعلام)، والخطاب جزء أساسى منها. يظهر الخطاب كجزء من النشاط الاجتماعى، وفى تمثيل الفاعلين للممارسات، وفى تشكيل الهويات (كهوية القائد السياسى). (بن غالى، ٢٠٢٤م: ٢٤٥)

العلاقة بالســـلطة: يهتم التحليل بكيفية ممارسة السلطة، خاصة إساءة استخدامها،

وآليات الهيمنة التى تفرضها جماعة على أخرى. مهمته الأساسية هى كشف كيف يساء استخدام السلطة أو تعاد إنتاجها وتشرعن عبر الخطاب من قبل الجماعات المهيمنة. تعرف السلطة الاجتماعية بأنها سيطرة فئة على أفعال أو عقول فئة أخرى، مما يحد من حريتها أو يؤثر فى معارفها. أما الهيمنة فهى ممارسة غير شرعية لهذه السلطة لمصالح خاصة، وغالبا ما تؤدى للامساواة الاجتماعية. (الزناتى، ٢٠٢٤م: ٣٦)

اللامساواة: تعد اللامساواة محورا رئيسيا، حيث يسعى التحليل النقدى للخطاب لفهم كيفية بنائها وإعادة إنتاجها خطابيا. نظرا لأن خطابات كثيرة تمارس التمييز والهيمنة ضد فئات معينة، رأى الدارسون أن تغيير الخطاب قد يساهم فى تغيير المجتمع. ولذلک، يهدف التحليل إلى إنتاج خطابات تضعف من هذه اللامساواة أو على الأقل تخلو منها، مما دفع للاهتمام بما يسمى "بلاغة الجمهور". (سامح، ٢٠١٧م: ١١٥)

الهدف الكشفى: الهدف من التحليل النقدى للخطاب ليس مجرد الوصف، بل هو "كشف" علاقات القوة غير المتكافئة وآليات السلطة والهيمنة المخفية أو المبررة فى الخطاب. إن كشف آليات اشتغال العنف الرمزى، المتجذر فى علاقات القوة، يكشف أوهام المجتمع وممارساته التى تبدو طبيعية. ومع ذلک، يرى البعض أن هذا التركيز على آليات الهيمنة والتعسف، كما فى أعمال بورديو، قد يوحى بحتمية الوضع ويغلق الباب أمام إمكانيات التغيير. (العلى، ٢٠٢٢م: ١٠٣)

الأداة: تحليل اللغة والخطاب: الوسيلة لتحقيق هذا الهدف الكشفى هى التحليل الدقيق "للغة والخطاب". يدرس التحليل النقدى كيف أن استعمال اللغة يعيد إنتاج رؤى وقيم وطرق أصحاب القوة والنفوذ، والتى قد لا ينتبه إليها الأقل نفوذا. يركز على العلاقة بين اللغة، والقوة/النفوذ، والأيديولوجيا (وهى تمثيل لجوانب من الحياة تسهم فى تأسيس علاقات السيطرة واللامساواة). ويسعى التحليل، باستخدام أدوات لغوية، إلى إلقاء الضوء على كيف يسهم استعمال اللغة فى السيطرة على جماعات اجتماعية معينة وفى سوء تمثيلها، ولا يقتصر ذلک على الممارسات السياسية بل يمتد للممارسات التعليمية وغيرها. (الشويرخ، ٢٠٢٣م: ٤٤٠)

مثلث فان دايک: الخطاب-الإدراک-المجتمع

يقدم فان دايک نموذجا يوضح العلاقات المتداخلة بين الأيديولوجيا، والمجتمع، والإدراک (العمليات المعرفية کالذاکرة)، والخطاب. فالتفاعل الاجتماعی ضمن الهياکل المجتمعية يتجلی کخطاب يدرک عبر هذا النظام المعرفی. ولهذا، يهتم التحليل الثقافی للخطاب بـ"العقد الخطابية"، وهی النصوص المرکزية الحاکمة والمؤثرة، بغض النظر عن عدد النصوص المحللة. (محمد، ٢٠٢٣م: ١١٢)

يعتبر فان دايک، وفقا لهذا الطرح، الباحث الذی سعی لدمج النظريات الإدراکية باللغويات والنظريات الاجتماعية. تقترح نظريته، المعروفة بـ"النظرية الاجتماعية/ الإدراکية لدراسات الخطاب النقدی"، نموذجا ثلاثی المستويات يربط بين الخطاب والإدراک والمجتمع. يوظف فی هذا النموذج "الأطر الإدراکية" کطبقة وسطی تتوسط بين البنی اللغوية للخطاب (کالاختيارات الدلالية والاستراتيجيات البلاغية) فی المستوی الأدنی، والبنی المجتمعية (کالعرق والجنس) فی المستوی الأعلی، مع العلم أن هذه المستويات هی مجازات تحليلية فی نظره. وبالتالی، فإن التحليل النقدی للخطاب هو تحليل إدراکی واجتماعی وسياسی فی آن واحد، ويعد هذا الترابط بين الخطاب والتفاعل من جهة، والبنی الاجتماعية من جهة أخری، إحدی أبرز خصائصه. وقد رکزت نسبة کبيرة من أبحاث فان دايک علی قضايا التنميط (أی إعادة إنتاج التحيز العرقی)، وإساءة استخدام السلطة من قبل النخب، والمقاومة التی تبديها المجموعات المهيمن عليها. (الشويرخ، ٢٠٢٣م: ٤٤٥)

يری فان دايک أن الخطاب هو حدث تواصلی يظهر تنوعات المعنی، ويشدد علی أهمية لسانيات النص واللسانيات الإدراکية ضمن ما يسميه "المذهب الاجتماعی الإدراکی". يستکشف هذا المذهب العلاقة بين الظواهر الإدراکية وبنی الخطاب والبنی الاجتماعية، ليشکل بذلک نموذجه الثلاثی الشهير: الخطاب-الإدراک-المجتمع. ومن القضايا الأساسية لديه أن العلاقة بين الخطاب وسياقه جوهرية فی التحليل النقدی للخطاب. يفضل فان دايک استخدام مصطلح "دراسات الخطاب النقدی" (CDS) بدلا من تحليل الخطاب النقدی (CDA)، حيث يری أن (CDS) تجمع بين طرق وأفکار

متعددة من علم النفس، واللسانيات النقدية، والعلوم الاجتماعية والإنسانية، فهى ليست مجرد طريقة تحليلية واحدة. ومن المهم الإشارة إلى أن هذا المذهب لا يقتصر على الجوانب الاجتماعية والإدراكية فحسب، بل يسعى أيضا لتقصى التمثيل الذهنى لمستخدمى الخطاب، وعمليات إنتاج الخطاب واستيعابه، بالإضافة إلى الأيديولوجيات السائدة فى المجتمع. لاحقا، ركز فان دايک بشكل متزايد على كيفية إعادة إنتاج اللامساواة الاجتماعية وإساءة استخدام السلطة والنفوذ، وبصفة خاصة على إعادة إنتاج "العرقية" من قبل من أسماهم "النخب الرمزية" (كالسياسيين والإعلاميين والعلماء والكتاب)، وذلک فى وسائل الإعلام المطبوعة، ساعيا بذلک إلى ردم الفجوة بين المجتمع والخطاب. (الشويرخ، ٢٠٢٥م: ٢١٨)

مفاهيم فان دايک الأساسية

السلطة (Power): يعرف فان دايک السلطة بأنها ليست مجرد أداة للقمع، بل هى سيطرة على أفعال وعقول جماعة أخرى، ويتم ذلک بشكل خاص عبر التحكم فى الخطاب العام. يوضح أن الأيديولوجيات غالبا ما تشكل لإضفاء الشرعية على سيطرة طبقة حاكمة أو نخب. فإذا كانت السلطة تعنى قدرة مجموعة على التحكم فى أفعال مجموعة أخرى، فإن وظيفة الأيديولوجيات فى هذا التحكم هى تمثيل جانبه الذهنى؛ أى أنها توفر المبادئ التى تبرر ممارسات المجموعة المسيطرة (كالتمييز)، وتسوغ استغلال السلطة، وتضفى عليه الشرعية، وتسهل قبوله من المجموعة المسيطر عليها. بعبارة أخرى، الأيديولوجيات هى وسيلة وغاية لممارسات المجموعة، وهدفها إعادة إنتاج المجموعة وسلطتها (أو تحدى سلطة مجموعات أخرى). ويستخدم مصطلح "الأيديولوجيات المسيطرة" للإشارة إلى تلک التى توظفها المجموعات المهيمنة لإعادة إنتاج سيطرتها أو إضفاء الشرعية عليها. (فان دايک، ٢٠٢٣م: ٣٧)

الأيديولوجيا (Ideology): هى الأنظمة الأساسية للمعتقدات الاجتماعية التى تنظم كيفية فهم الجماعات للعالم الاجتماعى (الإدراک الاجتماعى)، وتستخدم لتبرير الأفعال والعلاقات الاجتماعية، وخاصة العلاقات غير المتكافئة. يرى فان دايک أن إحدى

الوظائف الأساسية للأيديولوجيا هى ضمان شرعية السلطة وتحقيق الهيمنة لأفكارها الحاكمة عبر إقناع المتلقين بها. لذلک، يهتم الباحث فى التحليل النقدى للخطاب بكيفية تأثير هذه الأيديولوجيا أو دعم توجهاتها من خلال دراسة نصوص الخطاب، بهدف فهم علاقات السلطة بين الأطراف (المرسل والمستقبل)، وكذلک فهم الأهداف السياسية التى يسعى المخاطب لتحقيقها عبر استخدام الخطاب. (الساوى، ٢٠١٣م: ٢٣٩)

تمثيل الذات والآخر (Self and Other Representation): يشير هذا المفهوم إلى الاستراتيجيات الخطابية المستخدمة لتقديم صورة إيجابية عن "نحن" (الجماعة الداخلية/In-group) وصورة سلبية عن "هم" (الجماعة الخارجية/Out-group). هناک استراتيجيات دلالية (معنوية) قليلة تسود فى النقاشات حول الآخرين، إلى جانب التعبير عن تصورات مستقطبة وتقسيم الناس إلى "نحن" و"هم". هذا يوحى بأن التصورات الاجتماعية الكامنة عن الجماعات (مثل المواقف والأيديولوجيات) هى التى تتحكم فى الحديث والنصوص المتعلقة بالمهاجرين أو اللاجئين، وليس بالضرورة نماذج لأحداث فردية (إلا إذا استخدمت كأمثلة توضيحية). يمكن أن ينطبق هذا الاستقطاب أيضا على تصنيفات فرعية للجماعات الخارجية، مثل تقسيمهم إلى "جيدين" و"سيئين" أو "أصدقاء" و"أعداء". يمتاز الحديث داخل الجماعة الواحدة، سواء كان مصحوبا بانتقاص للجماعات الخارجية أم لا، باستراتيجية عامة أخرى، وهى "تفضيل الجماعة الداخلية" أو "التقديم الإيجابى للذات". يتخذ ذلک شكلا فرديا أو جماعيا، حيث يؤكد المتكلم على الخصائص الإيجابية لمجموعته (كحزبه أو بلده). يتجلى هذا التقديم الإيجابى للذات فى سياق النقاشات حول الهجرة، على سبيل المثال، من خلال تأكيد التسامح، أو الضيافة، أو عدم التحيز، أو التعاطف، أو دعم حقوق الإنسان. ويعد التقديم الإيجابى للذات ذا طبيعة أيديولوجية فى الأساس، لأنه مبنى على الصورة الذاتية الإيجابية التى تحدد أيديولوجيا المجموعة. (فان دايک، ٢٠٢٣م: ١١٢)

المربع الأيديولوجى

يعتبر المربع الأيديولوجى (Ideological Square) الذى قدمه تيون فان دايک أحد

النماذج التحليلية المؤثرة والمستخدمة على نطاق واسع فى التحليل النقدى للخطاب. يركز هذا النموذج بشكل خاص على تحليل كيفية التمثيل الأيديولوجى لمجموعة "نحن" المجموعة الداخلية مقابل مجموعة "هم" المجموعة الخارجية فى الخطاب. يقوم النموذج على استراتيجية كلية تعرف بـ "الاستقطاب" (Polarization) والتى تتضمن أربع حركات أساسية:

التأكيد على الجوانب الإيجابية لـ "نحن" (Emphasize our good sides)

التأكيد على الجوانب السلبية لـ "هم" (Emphasize their bad sides)

التقليل من أهمية الجوانب السلبية لـ "نحن" (De-emphasize our bad sides)

التقليل من أهمية الجوانب الإيجابية لـ "هم" (De-emphasize their good sides)

يهدف استخدام هذه الاستراتيجيات الخطابية إلى بناء صورة إيجابية للمجموعة الداخلية، وفى الوقت نفسه، خلق أو تعزيز صورة سلبية للمجموعة الخارجية. وهذا بدوره يساهم فى تبرير الأفعال، والحفاظ على التماسک الجماعى، وإعادة إنتاج الأيديولوجيات السائدة وعلاقات القوة غير المتكافئة. (Jawad, 2023, p. 1064)

بنى الخطاب

البنى الكبرى (Macrostructures): وهى الموضوعات والمواضيع العامة. يرى فان دايک أن «الأبنية الكبرى للنصوص دلالية؛ فهى تصور الترابط ومعنى النص الذى يستقر على مستوى أعلى من مستوى القضايا الفردية، وبذلک يمكن أن يشكل تتابعا كليا أو جزئيا لعدد من القضايا ذات وحدة دلالية على مستوى أكثر عمومية» ويقصد بها فان دايک المعنى الإجمالى للنص / الخطاب؛ يقول: «المفهوم النظرى الذى سنستعمله لوصف هذا المعنى الإجمالى، أى موضوع أو تيمة النص، ما هو إلا مفهوم البنية الكبرى "الدلالية"، كما هو الشأن بالنسبة لأى بنية دلالية، فإن البنية الكبرى تتركب أيضا من قضايا تهتم بنفس الوقائع فى مستوى عال أو أكثر تجريدا أو أكثر عمومية أو أكثر إجمالا.» (أعرضى، ٢٠٢٥م: ٣٦١)

البنى الصغرى (Microstructures): يكمن جوهر التأويل فى تفكيک الخطاب

إلى قضايا جزئية وترتيبها ترتيبا سلميا، وذلک قصد بناء دلالة القضايا المشكلة له، ومن ثمة تخطى هذا المستوى لإقامة البنية العامة للمحتوى. فى هذا الإطار يدرج فان دايک مفهوم البنية الصغرى أوما يسمى ب "أساس النص" ويتحدد فى كونه عبارة عن لائحة مـــن القضايا المبنينة التى تمثل المعنى المحلى للنص، حيـــث تنتظم كل قضية فى محمول وعدد من الموضوعات. (العربى، ٢٠١٩م: ٥٩)

تحليل الخطاب فى رواية يوتوبيا باستخدام نظرية فان دايک

مثلث فان دايک: الخطاب – المعرفة – المجتمع

تقـــوم نظرية فان دايک على مثلث ثلاثى الأبعاد يتكـــون من: الخطاب، والمعرفة، والمجتمع. وفى رواية يوتوبيا، يتجلى هذا المثلث بشكل صارخ من خلال البنية الخطابية التى تعكس تمثيلات السلطة والتمييز الطبقى والاحتقار الاجتماعى بين طبقتين رئيسيتين: اليوتوبيين الذين يمثلون الصفوة الثرية، والأغيار الذين يمثلون الفقراء والمنسيين.

الخطـــاب: يتجلى الخطاب فـــى بنية النص الروائى التى يقدم فيها الســـارد رؤيته الذاتية المتعالية على الآخر. يعبر الســـارد (الذى ينتمى إلى يوتوبيا) بلغة نرجســـية وفوقية عن الواقع من منظوره، مما يرســـخ خطابا إقصائيا قوامه التمركز حول الذات، وتشييء الآخر، وتحويله إلى مجرد أداة للمتعة أو العنف أو التجربة العابرة. فمثلا، حين يتحدث عن الأغيار يقول: «***ما أقبح منظره!.. كل عالمه تلخص فى هذه الشـــطيرة التى فى يدى، ولم يعد يعرف أى شـــيء عما يدور حوله***» (توفيق، ٢٠١٤م؛ ٢٢)، مما يعكس تحقيرا واضحا وتجريدا للآخر من كينونته الإنسانية.

ويتكرر الخطاب النرجســـى عند وصفه ليومياته فى يوتوبيا، حيث يقول: «***أصحو.. أضاجع الخادمـــة.. أقيء.. أضحک.. أرقـــص.. ألبس.. أدس إصبعـــى.. أرى النيران الخضر..***» (ص: ١٢و١١٦)، وهو وصف ينزع عن ذاته أى عمق إنسانى، ويحول الوجود إلى استعراض حســـى عدمى، مقابل تحويل الآخر إلى موضوع للمراقبة أو الصيد أو الازدراء.

المعرفـــة: يظهر النص أن المعرفة متحيزة وفقا للانتماء الطبقى. اليوتوبيون لا يعرفون

عن الأغيار سوى ما يرغبون فى تصديقه عنهم: أنهم وحوش، قذرون، بلا عقل ولا أخلاق. يتجلى ذلک فى قول السارد: «*بشكل ما، يستحق الفقراء كل ما هم فيه.. إنهم أقل ذكاء من آبائنا.. إنهم ضعيفو الإرادة خاملو الحركة.*» (ص: ١١٩) هذه المعرفة ليست مستندة إلى احتكاک حقيقى، بل إلى خطاب مكرر داخلى يغذى الانفصال. بالمقابل، الأغيار – ممثلين فى شخصية جابر – يمتلكون معرفة واقعية بالواقع المتشظى خارج الأسوار. جابر يعلم خبايا الأرض، ويعى حقائق الحياة القاسية، ويستطيع فضح زيف رفاهية يوتوبيا، كما نقرأ فى قوله: «*لكنى بالفعل لا أريد دما.. لا أريد قتلى..هذه هى النقطة التى تحدد كل شىء.. الدليل الوحيد الذى يخبرنى أننى ما زلت آدميا ولم أتحول إلى ضبع، أننى فى هذا أتفوق عليهما..*» (ص: ٧٨)، مما يكشف وعيا أخلاقيا مضادا.

المجتمع: المجتمع فى يوتوبيا مجتمع منقسم على نحو قطبى متطرف؛ الجدار الفاصل بين الطرفين لا يمثل فقط حدودا فيزيائية، بل هو حاجز أيديولوجى معرفى ثقافى يرسخ عبر خطاب يتكرر داخل الرواية بأشكال متعددة: إعلام، تعليم، دين، سرد شخصى، وأساطير حياة الصفوة. من الأمثلة البارزة على هذا الانقسام حديث السارد عن بوابات يوتوبيا والأسلاک المكهربة والدوريات، حيث يقول: «*ليس من السهل أن تتسلل لعالم الفقراء بالخارج.. العسر كل العسر أن تستطيع المرور من بوابة الحراسة المحكمة حول يوتوبيا.. إن الفقراء وأبناء الأكابر يبدون متشابهين عندما تراهم فى الظلام من طائرة.. طلقات فى الظلام.. جثثا هامدة وحادثا مؤسفا..*» (ص: ١٩) كذلک، تكشف الرواية عن صورة دينية مشوهة تؤدى دور التبرير الطبقى، كما فى وصفه لحج الآباء المتدينين باعتباره وسيلة للتطهر من الدماء التى سفكت لبناء رفاهيتهم: «*منطقة دور العبادة التى بها أكثر من مسجد وكنيسة ومعبد يهودى.. أعتقد أن سبب تشبث الكبار بذلک هو خشيتهم من أن يفقدوا كل شىء فى لحظة.. أن يضيع التميز.. أن يجدوا أنفسهم فى الخارج.. هناک سبب آخر مهم فى رأيى، هو ولع الكبار بأن يجمعوا بين طابعى الثراء والورع..الثراء والورع ثنائى محفور كما يبدو فى عقول جيل الآباء المصريين منذ دهور.*» (ص: ٨)

هكـــذا، تخلق الرواية مجتمعا لا يكتفى بالتمييز الطبقـــى بل يعيد إنتاجه عبر أنظمة رمزية تشعر الطبقة العليا بأنها الأصل، وأن الآخر ناتج خلل ينبغى محوه أو تهميشه أو استخدامه كمجرد وسيلة لبلوغ المزيد من اللذة أو التسلية.

تطبيق المربع الأيديولوجى على الرواية

التقديم الإيجابى للذات

يقدم ســـكان يوتوبيا أنفســـهم كصفوة متحضرة، عصرية، تملك التكنولوجيا والمال والجمال. يســـتخدمون لغة تميزية تضعهم فى منزلة أعلى من بقية البشر، ويشعرون أنهم يستحقون كل ما ينعمون به، بل وينظرون للآخرين كعالة على هذا التقدم. يقول السارد: «*أعرف أننى أســـتطيع قهر جابر لو هاجمنا.. لن ينتصر الفقر والشحوب وسوء التغذية على الثراء والرياضة منذ الصغر.*» (ص: ١٠٧)

ويتفاخر كذلك بتفاصيل حياته المترفة: «*عاشـــرت كل فتاة راقت لى، وجربت كل أنـــواع المخدرات.. كنت قد بدأت تجاربى بالماريجوانا.. إكســـتازى.. وجربت LSD.. جربت عقاقير كثيرة جدا.. ولكن مشـــكلة المخدرات هـــى أنها تفقد إثارتها ما دامت متاحة.. من حقى أن أتعاطى أى شـــىء بأى كمية وبـــأى ثمن..*» (ص: ٥) كما يتفاخر بأســـلوبه الجنسى العدوانى كدليل على القوة والهيمنة، فيقول: «*من الطريف أن تلاحظ كيف يجعل الملل سلوكك الجنسى عدوانيا ساديا.. لو كنت تعرف طريقة أخرى يمارس بها المرء حياته، فلسوف يســـعدنى أن تقولها..*» (ص: ٦) هذا التقديم الذاتى الإيجابى يرسخ صورة اليوتوبى كمتحكم فى العالم ومصيره، لا تحده قوانين أو أخلاق.

التقديم السلبى للآخر

يصور الراوى اليوتوباوى الأغيار ككائنات دونية، أشبه بالحيوانات، ويختزلون فى صفات القذارة، التخلف، العنف، والشهوة البدائية، فيقول فى وصفه لصفية(أخت جابر) «*ثمة شـــىء حيوانى غريب فى تلك اللمســـة لم أرها من قبل إلا مع قرد مد يده ذات مرة يتحســـس أناملى فى وجل وفضول عندما كنت فى حديقة حيواننا. هبت جرمينال منتفضة وأبعدت رأسها قليلا.. وثبت(صفية) للخلف مترا بطريقة زادتنى اقتناعا بنظرية*

القرد تلک.. هذه حركات غير بشـــرية.. هذه حركات تمت بصلة لانعكاســات حيوانية متوارثة ولا دخل للعقل فيها..» (ص: ٦٤)

وفى مشـــهد آخر يصف العمال قائلا: «*لا أحد يعيش هنا من دون عمل.. عمل قذر.. عمل حرام.. عمل غير قانونى..*» (ص: ٨٦) أما النســـاء، فغالبا ما يتم وصفهن بوصف مهين، كما حدث فى حديث إحدى النســـاء عن الاغتصاب، حيث يقدم بشكل ساخر وكأنه من طقوس الحياة اليومية فى عالم الأغيار: «*يمكن لهذه الفتاة أن تجلب لک الكثير مـــن المال بدلا من أن تكون عبئا عليک. الصنف شـــحيح والموجود رديء.. أنت ترى وجه سمية البشع الذى يذكرک بالأبالسة.. هذه الفتاة ستكون مكسبا لنا.*» (ص: ٩٣)

التخفيف من التقديم السلبى للذات

رغم الفوقية التى تسود الخطاب، تظهر لحظات يعبر فيها السارد عن نوع من الحيرة أو التأمل فى قســـوة العالم الذى ينتمى إليه. لكنه لا يذهب إلى حد النقد الجذرى، بل يبرر القســـوة بالملل أو غياب المعنى: «*ماذا بوسعک أن تفعل فى هذه الجنة الصناعية؟ تنام.. تتعاطى المخدرات.. تأكل حتى يزهق الطعام أنفاســـک..*» بل ويقول: «*ربما كنت ملـــولا.. هذا ليس ذنبى كذلـــک*» (ص: ٦)، ليجعل من الوضـــع القائم قدرا أكثر منه اختيارا.

التخفيف من التقديم الإيجابى للآخر

تقلل الرواية من قيمة الجوانب الإنسانية لدى الأغيار عبر تقليص مساحة أصواتهم، ما عدا شـــخصية جابر، الذى يعامل كاستثناء. حتى حينما يظهر ذكاء أو شجاعة، يتم التشـــكيک ضمنيا فى دوافعه، أو يقدم كحالة نادرة بين الأغيار: «*إنه أحمق وعليه أن يدفـــع الثمن.. أنا لن أقـــوم بكل هذه المغامرة وأعود من دون تـــذكار... كنت أحكى لهم عن جابر الأحمق.. جابر الســـاذج الذى لم يســـتطع أن يفهم قواعد اللعبة..*» (ص: ١١١و١١٣) و رغم أن جابر أنقذهما أكثر من مرة، فإن خطاب الريبة يظل حاضرا: «*لم يفعل جابر شيئا طيلة هذا النهار.. لما سألته عما ينوى عمله بنا قال فى غموض: انتظرا حتى الوقت المناسب.. لماذا لم تتخلص منا؟*» (ص: ٦٧)

وحتى عند الحديث عن الأحياء العشوائية، فإن الرواية تغلب عليها صور الانحطاط والفوضى، ولا تمنح الشخصيات الأخرى مساحة كافية لتقديم ذاتها: «*كنا نمشى وسط الجموع ذاهلين.. هناك قفص خشبى عليه أكوام من جلود الدجاج بشعة المنظر.. أكوام من الثياب المتسخة المستعملة تباع بمائة جنيه للقطعة.. نتوغل بين مجموعة من العشش الصفيح، أو المصنوعة من البامبو وبقايا الأخشاب.. الأرض مبتلة تغوص فيها قدماك.. مزيج من الوحل وبقايا الغسيل والمجارى الطافحة.. على أبواب العشش تقف نساء قذرات بشعات المنظر يضحكن لى فى إغراء..*» (ص: ٣٠) هذا البناء الخطابى يظهر كيف تنتج الرواية – من خلال السارد اليوتوبى – نسقا أيديولوجيا متكاملا يعيد إنتاج التمييز من خلال ثنائية «نحن الأفضل» مقابل» هم الأسوأ»، مع مساحة محدودة جدا للمراجعة النقدية أو الاعتراف بالآخر كند أو إنسان.

المربع الأيديولوجى المضاد (من منظور "الأغيار" – خاصة جابر)

التأكيد على الجوانب الإيجابية لـ "نحن" (الأغيار)

يمثل جابر صوت العقل والكرامة والقدرة على التكيف مع ظروف مهينة، وهو ليس مجرد شخصية روائية بل تجسيد لإمكانية النجاة دون امتلاك أى أداة مادية أو دعم مؤسسى. إنه يفكر ويخطط وينقذ ويقدم الحماية للجميع حتى لو كان مواطنا يوتوباويا: «*لا شكر على واجب.. أكره القتل على الجانبين، برغم أنكما جئتما طبعا للفوز بتذكار فريدا!*» (ص: ٥٩)

وفى موقف آخر، يظهر جابر شجاعة نادرة حين يصر على أن يرافق السارد وجيرمينال فى رحلتهم المحفوفة بالمخاطر، قائلا: «*أنتما فى أمان الآن.. ودا عا.. فقط لا تعودا ولا تحاولا صيد واحد آخر منا.. فلن أكون موجو دا المرة القادمة..*» (ص: ١١٠) هذا المشهد يظهر أن الأغيار يمتلكون أخلاقا عملية وشجاعة تتجاوز عدالة الفرصة إلى الحكمة فى تدبير النجاة.

التأكيد على الجوانب السلبية لـ "هم" (اليوتوبيين)

يرى جابر أن اليوتوبيين ليسوا فقط منسلخين عن الواقع، بل هم مخلوقات مشوهة أخلاقيا ونفسيا، غير قادرين على الإحساس بغيرهم. فى تعليق ساخر على دافع الصيد

عندهم يقول: «*ينتشر أمثالكم كالضباع بحثا عن فريسة.. بينما العبيد والجوارى من عندنا يقفون بانتظار تلبية طلباتكم.. كل شىء متاح وللبيع حتى العبيد أنفسهم*» (ص: ١٠٧) وهذا يشير إلى أن الصيد عندهم ليس بدافع البقاء، بل بدافع المتعة والتفاخر. كما يسخر من عجزهم رغم ما يملكون فيفضح خواءهم الداخلى وانحرافهم عن الإنسانية: «*أنت هنا تأكل من طعامى وتنام تحت سقفى.. نظر لى فى تحد. يتمنى أن يمزقنى لكنه تحت رحمتى بالكامل لهذا يصمت.. لو كان يملک شيئا واحدا محترما فهو الذكاء. قال لى: معنا بعض المال.. فهل هذا ما تريد؟ قلت فى اشمئزاز: لا أريد شـــيئا من مالک..*» (ص: ١٠٧)

التقليل من أهمية الجوانب السلبية لـ "نحن" (الأغيار)

يعترف جابر بوجود عنف وفوضى فى مجتمعه، لكنه يعزو ذلک إلى التاريخ الطويل من القهر والتجويع والانفصال عن النظام وحين يعلق على أخطاء أفراد مجتمعه، يربطها دائما بالحرمان: «*لاحظ أن ٧٨ ٪ من مرتكبى الاغتصاب عاطلون.. دعک بالطبع من ذوبان الطبقة الوســطى التى تلعب فى أى مجتمع دور قضبان الجرافيت فى المفاعلات الذريــة.. مجتمع بلا طبقة وســطى هو مجتمع مؤهل للانفجار.. لقد نســف ما تبقى من الطبقة الوســطى، وتحول المجتمع إلى قطبين وشــعبين.. وبنفــس منطق قلاع القرون الوسطى عندما كان الحكام يقيمون الحفلات الماجنة بينما الطاعون يفتک بمحيط الفقر الخارجى.*» (ص: ٨٣) فى هذا المقطع يســعى الخطاب إلى تبرير الســلوكيات السلبية للجماعة الداخلية وتفســيرها فى إطار أسباب خارجية أو هيكلية، بدلا من مساءلتها أخلاقيا أو تحميل أفراد الجماعة مســؤولية مباشرة عنها. فى هذا السياق، يعترف جابر بوجــود عنف وجرائم (٧٨٪ من مرتكبى الاغتصــاب عاطلون)، لكنه لا يعرض ذلک بوصفــه دليلا على انحراف أخلاقى أصيل فى مجتمعــه، بل كنتاج حتمى للفقر والبطالة والتجويع. بهذه الطريقة، يتم نفى أو تخفيف المســؤولية الأخلاقية الفردية، وتحويلها إلى نتيجة منطقية لسياســات التهميش الطبقى التى مارستها النخبة اليوتوبية. ويستمر هذا التبرير فى الجملة التالية (دعک بالطبع من ذوبان الطبقة الوســطى..) محاولا أن يقول: إن مــا يحدث فى مجتمع الأغيار من عنف أو انحراف ليس نتيجة خلل داخلى فيهم، بل

انهيار للبنية الكلية للنظام. أما المقارنة بين الوضع المعاصر و«قلاع القرون الوسطى»، حيث كان الحكام يحتفلون بينما الفقراء يموتون بالطاعون، فتقدم لتعزيز الخطاب الدفاعي للأغيار. إنها محاولة لإعادة بناء صورة إيجابية نسبية لـ"نحن"، رغم الاعتراف بالسلوكيات السلبية، وذلك بإسناد تلك السلوكيات إلى السياق لا إلى الفاعل.

التقليل من أهمية الجوانب الإيجابية لـ "هم" (اليوتوبيين)

يتجلى مبدأ التقليل من أهمية الجوانب الإيجابية لليوتوبيين بوصفه أحد الأضلاع الأربعة فى المربع الأيديولوجى لفان دايک، من خلال استخدام خطاب الأغيار لنزع الشرعية الأخلاقية والاجتماعية عن الطرف المهيمن إذ تقدم صورة اليوتوبيين ككائنات تمارس الكذب بسهولة ودون ضمير، وهو ما يعكس نزعة إلى تجريدهم من أى بعد أخلاقى أو إنسانى: «***أنا لا أثق بقسمكم لأنكم.. وتكذبون علينا بالسهولة التى يكذب بها المرء على خروف.. لا أريد سماع كلمة عن أبيک وحياة أبيک..***» (ص: ١٠٣) كما يسعى هذا الخطاب إلى تحطيم الصورة الإيجابية التى يرسمها اليوتوبيون عن أنفسهم، عبر نزع الصفة الأخلاقية، وتحقير الأصل الاجتماعى، ورفض أى محاولة لإضفاء بعد إنسانى عليهم: «***أنا أعرف أصل وفصل هذا الرجل.. هؤلاء لم يأتوا من السماء.. كلهم جاءوا من أسفل أسفل الطبقات***» (ص: ٢٨) فيهدف الخطاب إلى تقويض سردية التفوق التى يتبناها اليوتوبيون، وتفكيک وهم الامتياز الوراثى أو الطبقى و نفى الطابع النخبوى أو القدرى المفترض فى وجودهم، ومحاولة فضح حقيقة طبقية مدفونة خلف الثروة والسلطة.

فهذه النماذج، توازن بين النقد والتفسير، بين الإدانة والتحليل، ليعطى للأغيار بعدا إنسانيا حقيقيا يتجاوز ما يحاول الراوى اليوتوباوى نفيه أو تجاهله.

تحليل بنى الخطاب

البنى الكبرى

حبكة الرواية ترتكز على رحلة تحول تقود السارد من الاستهلاک العبثى، حيث لا قيمة لأى شىء إلا المتعة والتجربة، إلى المواجهة المباشرة مع الواقع الذى لطالما

تم تجاهله. يتحول السارد من متفرج ساخر إلى قاتل، ومن مستخدم للأغيار إلى مطارد ومهدد، وصولا إلى لحظة القتل التى تنهى الرواية، حيث يتجسد أقصى درجات الانحطاط الإنسانى.

والبناء السردى ينقسم بوضوح بين رواية من داخل يوتوبيا بصوت السارد الرئيسى، الذى يمثل نخبة منفصلة عن العالم، ومن خارجها من خلال جابر، الذى يقدم رؤية واقعية ومعرفية للأرض، وبالتالى يمنح القارئ منظورا مضادا للخطاب الرسمى. على هذا النحو، فإن بنية الرواية تعكس الثنائية البنيوية التى تؤسس لها: الداخل والخارج، النخبة والهامش، الجدار وما وراءه.

تعد رواية يوتوبيا تمثيلا نموذجيا لصراع طبقى مركزى يشكل الهيكل العام للنص، وهو الصراع بين طبقة مترفة تملک السلطة والثروة (اليوتوبيون) وطبقة مسحوقة ومهمشة (الأغيار). تبنى معظم الأحداث والسرديات فى الرواية حول هذا التوتر الجذرى الذى لا يعبر عنه فقط من خلال الحبكة أو الشخصيات، بل من خلال البنية الخطابية العامة التى تقسم العالم إلى قطبين متناقضين تماما، يتسم كل منهما بمنظومة قيم ورؤية خاصة للواقع فمنذ الصفحات الأولى، تظهر ملامح هذه البنية عبر جمل تفصل بين "نحن" و"هم"، كما فى المثال: «***نحن أسرة واحدة.. إلخ... لسنا مثل الأغيار... إلخ***» (ص: ٩) هنا يتم تقديم "نحن" (اليوتوبيين) بوصفهم جماعة متماسكة، منظمة، ومنفصلة عن "الأغيار"، الذين يحذفون من نطاق هذه الأسرة الإنسانية الواحدة. هذه البنية الافتتاحية تؤسس ثنائية حادة: الداخل (يوتوبيا) مقابل الخارج (العالم المحطم)، وهى ثنائية تتكرس لاحقا كإطار نظرى ضمنى يوجه كل تمثيل سردى لاحق فى الرواية: «***إذن فليمت الآخرون.. على الأقل، يمكنک أن تراهم وهم يموتون بدلا من أن يروک هم..***» (ص: ١٦) يعكس هذا تصعيدا فى البنية الكبرى، حيث لا يكون الفصل بين الطبقتين مجرد عزل رمزى أو اجتماعى، بل يتحول إلى خطاب تطبيعى للقتل والموت. تقدم رؤية اليوتوبيين للعالم الخارجى بوصفها مشهدا للموت الذى لا يثير فيهم سوى نوع من التسلية الباردة، مما يشير إلى تفكک كامل فى منظومة القيم المشتركة، وانفصال حاد عن مبادئ التعاطف أو المسؤولية الإنسانية. هذا التعليق يعكس جوهر الرواية كعالم ديستوبى يقوم على

اللامساواة المأساة: «*لكل واحد منا فأره الذى يعتبره أثمن شىء فى العالم. ربما يراه الآخرون مجرد فأر حقير، لكنه بالنسبة لك أهم شىء فى الوجود*» (ص: ١١٤) فى هذا السياق، يتعمق البعد الرمزى للصراع الطبقى؛ الفأر هنا ليس مجرد كائن، بل استعارة للذات أو القيم الذاتية التى تفهم فقط ضمن سياق اجتماعى خاص. فالأشياء التى تعد ثمينة أو ذات معنى لدى أحد الطرفين، تختزل وتحقر لدى الطرف الآخر، ما يشير إلى انعدام التواصل الرمزى بين الطبقتين. إنه تأكيد ضمنى على أن كل طبقة تعيش فى منظومة دلالية خاصة بها، حيث لا يوجد مجال لفهم مشترك أو تقييم موحد للمعنى والقيمة.

البنى الصغرى

اللغة: يستخدم خطاب يوتوبيا لغة استعلائية ومتشظية، تعكس حالة الاغتراب الطبقى والثقافى التى يعيشها السارد ومن يمثلهم من الصفوة. تكثر فى خطابهم المصطلحات الأجنبية والمفاهيم الاستهلاكية المستوردة، مثل: "الفودو" و"الليبيدافرو" و"الفلوجستين"، التى تستخدم بلا سياق حقيقى، بل كرموز لما بعد الحداثة أو لهاث خلف لذائذ سطحية لا ترتبط بجوهر الإنسان أو بيئته. هذه اللغة تكرس الإحساس بالفوقية من خلال الاستعراض الجسدى والرمزى، كما نرى فى قول الراوى: «*أتأكد من أن شعرى حليق بطريقة هنود الموهيكان الشهيرة.. الصدر عار إلا من عدة قلائد عملاقة.. هناك جماجم وأيقونات من سحر الفودو.. لست عابد شيطان، لكن هذه الأشياء تبدو مثيرة على صدرى..*» (ص: ٣)

وفى موضع آخر يقول: «*كنت أعرف اسم الدواء الجديد لأن أبى يستورده.. (ليبيدافرو).. لهذا لا يتوب رجال يوتوبيا أبدا.. لا يشيخون ولا يهرمون... يملكون السطوة والنفوذ والمال، ولا يملكون الفتوة الطبيعية التى لا تصنعها العقاقير*» (ص: ٢٥) أما عن الفلوجستين، فهو أكثر تعبيرا عن انغماس اليوتوبيين فى عالم اصطناعى من المخدرات واللذة، إذ يقول:

«*هو سيد المخدرات.. هناك فى يوتوبيا تسيل أنهار الفلوجستين... إنهم يأكلونه*

ويشـــربونه... إنهم يعرقونه... صنابير الماء لا ينزل منها ماء، بل فلوجستين... يغسلون أقدامهم فى الفلوجستين... يستون كلابهم فلوجستين..» (ص: ٣٨)

كل هذه العبارات تعكس تراكب المصطلحات الغريبة مع الأفعال الحســية المفرغة من المعنى، بما يكشف عن اغتراب كامل عن الواقع وتعلق بهويات استهلاكية سطحية. تعكس هذه اللغة رغبة مســتمرة فى تزييف الواقع بلغة اصطناعية، تســتخدم لإضفاء شرعية على تفوق زائف وتصبح اللغة هنا أداة لتكريس الفصل بين عالم يوتوبيا النظيف المصنوع، وعالم الأغيار الحقيقى الغارق فى الألم.

بالمقابل، يتســم خطاب الأغيار، لا سيما فى صوت جابر، بلغة ترابية واقعية، تتكئ على ألفاظ الحياة اليومية وتجارب البقاء والخوف. فحين يصف جابر حيه، يقول: «وسط برک الماء الآسن، وبقع الكيروسين، وسط جثث الكلاب، وصبية يلعبون القمار..» (ص: ١٠٤) ويظهر الطابع الأخلاقى المقاوم فى خطابه كذلک، كما فى قوله وســط مجموعة من اللصوص: «*اسمعوا.. هذه الفتاة جائعة.. أكثر جوعا منا.. كلكم ســرق يوما بســبب الجوع.. لقد أخذتم ما لكم فاتركوها..*». (ص: ٧٣) وفى موضع آخر، يتحدث عن دوافعه الإنسانية فى حماية أخته صفية: «*أنا حى.. لن أموت وأترک (صفية) تسرق.. لن أموت وأتركها للنساء يخمشن وجهها ويطلقن عليها نعوتا قذرة.. لن أموت وأتركها تجوع..*» (ص: ٤٨) حتى اللغة التى تســتخدم فى وصف العنف عند الأغيار تأتى بصيغة دفاعية أخلاقية، كما فى هذا المقطع: «*قالت لى إنه مفترس.. إنه يغار عليها.. إنه يحمل مطواة قرن غزال يمكنه أن يرشقها فى زجاج نظارتى*» (ص: ٤٣)

وهنا تتجلــى اللغة كأداة مقاومة: تقر بالوضع القاســى لكنهــا لا تفقد اعترافها بالإنســانية. وبهذا التقابل، يظهر الفارق بين خطــاب يوتوبيا وخطاب الأغيار: الأول مفرط فى الاصطناعية، مهووس بالمتعة، مشــبع بالغربة عن المحيط؛ والثانى مشبع بحس واقعى مؤلم، لكنه أكثر صدقا ووضوحا، وأكثر ارتباطا بالحقيقة المادية للحياة.

المعجــم: فى رواية يوتوبيــا، تلعب الحقول الدلالية دورا حاسما فى كشــف البنى الأيديولوجية العميقة التى تحكم عالم الرواية وتوجه العلاقات بين الطبقات. فالمفردات المســتخدمة فى خطاب سكان يوتوبيا تعكس عالما مغلقا على ذاته، يقوم على التفوق،

الامتـــلاك، والإقصاء العنيف للآخر. تتكرر كلمات مثل "الأغيار"، "الصيد"، "التذكار"، "الخـــراب"، و"المول"، وهى جميعا مصطلحات تنتمـــى إلى حقل دلالى يربط بين العنف والترف والمتعة النخبوية. فعلى ســـبيل المثال، مصطلح "الصيد" لا يســـتخدم هنا بمعناه الطبيعى (صيد الحيوانات) بل للإشارة إلى ممارسة وحشية يمارسها شباب يوتوبيا الذين يتســـللون إلى مناطق الأغيار لقتلهم، فى عملية ينظر إليها كلعبة ترفيهية أو إثارة، أشبه برحلات سفارى بشرية. أما كلمة "تذكار"، فتتخذ دلالة مرعبة ومجردة من الإنسانية؛ إذ لا تشير إلى ذكرى عاطفية أو رمزية، بل إلى أعضاء بشرية (كالعظام أو الأصابع) تنتزع من أجســـاد الضحايا وتحتفظ بها بوصفها غنائم. هذه المفردات تعكس انحدارا أخلاقيا يصل إلى حد التشـــييء الكامل للآخر، وتجعل من العنف وسيلة للمتعة لا مجرد ضرورة أو اضطرار. كذلك، فإن تكرار كلمة "المول" فى وصف الحياة داخل يوتوبيا يشير إلى هيمنة نمط اســـتهلاكى فارغ، حيث تختزل الحياة فى التسوق والمتعة الجسدية، بعيدا عن أى التزام أخلاقى أو اجتماعى.

فـــى المقابل، يحمل خطاب جابر، ممثل الأغيار، حقـــولا دلالية مختلفة تماما تعكس أولويات البقاء والكرامة الإنســـانية. تتكرر فى حديثه كلمات مثل "العيش"، "الستر"، و"الشـــرف"، وهى مفردات تنتمى إلى عالم يســـعى إلى الحد الأدنى من الأمان المادى والمعنوى. فـ"العيش" لا يعنى الترف، بل الخبز الضرورى للبقاء، و"الستر" يفهم بوصفه حماية للذات والبيت من الانكشـــاف أمام قســـوة الحياة، أما "الشـــرف" فهو القيمة الوحيدة المتبقية فى عالم متهالك، يتمسك بها كخط دفاع أخير ضد الانهيار الأخلاقى والاجتماعى.

هـــذا التباين فى الحقول الدلالية لا يعكس فقط اختلافا فـــى اللغة أو الثقافة، بل يمثل صراعا وجوديا بين عالمين: عالم يعتبر الآخر متعة وعرضا ترفيهيا قابلا للاستغلال والتدمير، وعالم يحاول الاحتفاظ بإنســـانيته وســـط الفقر والذل. وبهذا المعنى، يصبح اختيار الكلمات فى الرواية أداة اســـتراتيجية تظهر كيف أن اللغة ليســـت محايدة، بل محملة بالأيديولوجيا، وتستخدم لتكريس السيطرة من جهة، وللصمود والمقاومة الرمزية من جهة أخرى.

الضمائر: تشـــكل الضمائر، ولا ســـيما ثنائية "نحن/أنتم"، عنصرا بنيويا محوريا فى الخطاب السردى لرواية يوتوبيا، وتستخدم لتكريس الانقسام الرمزى والوجدانى بين الطبقتـــين المتصارعتين. هذه الثنائية لا تعكس فقـــط اختلافا لغويا، بل تترجم رؤيتين متناقضتين للعالم، تسهم كل منهما فى تثبيت موقع المتكلم داخل منظومة الصراع الطبقى؛ فى السرد اليوتوبى، يوظف ضمير "نحن" بأســـلوب فردانى نرجسى، يشير إلى جماعة مترفة تعلى من شـــأن ذاتها وتقصى الآخر بوصفه أدنى. يتجلى هذا فى قول السارد: «***عندمـــا كان آباؤنا يقتنصون الفرص، كان آباؤكـــم يقفون أمام طوابير الرواتب فى المصالح الحكومية.. أنتم لم تفهموا اللعبة مبكرا؛ لهذا هويتم من أعلى إلى حيث لا يوجد قاع.. ما ذنبنا نحن؟ أنتم أقل منا فى كل شـــىء.. هذه ســـنة الحياة..***» (ص: ١٠١) هنا يتحـــول "نحن" إلى ضمير للتميز والتفوق الطبقى، ويســـتخدم لتبرير الوضع القائم عبر خطاب يدعى المنطق والطبيعية (هذه ســـنة الحياة)، مع تحميل الطرف الآخر (الأغيار) مســـؤولية انحدارهم. لا يظهر "أنتم" كوصم خارجى فقط، بل كدعامة أيديولوجية تبنى حدودا صلبة بين الطبقتين وتضفى شرعية على الامتياز الطبقى.

فى المقابل، يوظف "نحن" فى خطاب جابر بدلالة مختلفة تماما، تشـــير إلى الانتماء الجماعى والمعاناة المشـــتركة. يقول جابر: «***نحن الفقراء لم نكف عن اعتبار إســـرائيل عـــدوا.. بينما هوينا نحن إلى الحضيض.. لو ابتاع كل منا زيتونة فلســـوف يصير بائع الزيتـــون مليونيرا..***» (ص: ٦٣) فى هذا الســـياق، لا تعبر "نحـــن" عن امتياز بل عن تهميش؛ الضمير هنا يســـتحضر لتوحيد صوت الأغيار، ورسم صورة جماعية لمعاناتهم اليومية وفشلهم فى النهوض الاقتصادى والسياسى. كما يعكس توظيف "نحن" إدراكا جماعيا للمأزق التاريخى والاجتماعى، خلافا لاســـتخدامه فى الخطاب اليوتوبى كأداة فصل وتفوق.

بهذا المعنى، لا تعد الضمائر فى الرواية مجرد أدوات لغوية، بل مكونات أيديولوجية تعيد إنتاج التراتب الطبقى وتعزز منطق الانقســـام؛ إذ تظهر كيف أن اللغة تســـتخدم لترســـيخ مواقع القوة والضعف، الانتماء والإقصاء، والتبرير والإدانة، فى عالم روائى يقوم على التفاوت الجذرى والتنافر الرمزى.

النتيجة

رواية يوتوبيا ليســـت مجرد عمل خيالى مستقبلى، بل هى نص أيديولوجى مكثف، يشتبك مع أسئلة أخلاقية وسياسية واجتماعية معقدة، ويتحول إلى مرآة مكبرة لانقسام المجتمع المعاصر. إنها لا تقدم فقط تحذيرا مما يمكن أن يكون عليه المستقبل، بل تكشف عن واقع كامن فى الحاضر، يزداد فيه الانفصال بين الطبقات، ويتفاقم فيه التشـــيىء، ويتراجع فيه الحس الإنسانى لصالح ثقافة استهلاكية عبثية.

وقـــد أتاحت نظرية فان دايک، من خلال مثلـــث الخطاب والمعرفة والمجتمع، أداة فعالة لتحليل الديناميات النصية التى تمأســـس التحيز الطبقى داخل الرواية. فالخطاب فـــى يوتوبيا ليس بريئا، بـــل موجه إيديولوجيا لتكريس تصور نرجســـى عن الذات اليوتوبية، مقابل تقديم نمط نمطى ســـلبى للآخر المقموع. وتظهر البنية الســـردية، على المستوى البنيوى واللغوى، كيف يتم إنتاج هذه التمثيلات وتدويرها داخل الرواية، عبر المفردات، والضمائر، وتوزيع الأصوات.

كذلک فإن تطبيق المربع الأيديولوجى على الرواية كشف عن استراتيجيات تقديم الذات الإيجابى والتقديم الســـلبى للآخر، حيث يتم تأكيد تفوق اليوتوبيين وتحضرهم، مقابـــل حيوانية الأغيار وهمجيتهم. غير أن المربع الأيديولوجى المضاد، لا ســـيما من منظور جابر، يمنحنا قراءة معاكســـة تعيد الاعتبار للأغيـــار كذوات لها معرفة، وقدرة، وكرامة. فشخصية جابر ليســـت فقط رمزا للمقاومة الفردية، بل هى أيضا تمثيل صوتى لهامش ينطق بالحقيقة وسط صخب الزيف.

هـــذا التحليل يثبت كيف يمكن للنص الأدبى أن يتحول إلى ســـاحة صراع خطابية تشـــهد مواجهة بين رؤيتين للعالم: واحدة تنكر إنسانية الآخر وتسعى إلى تشييئه، عبر خطاب متعال اســـتعلائى، وأخرى تقاوم من الهامش وتحاول استعادة ما بقى من كرامة الإنســـان، وتفضح تناقضات اليوتوبيا المزعومة. ومن هنـــا، فإن رواية يوتوبيا لا تقرأ بوصفها سردية خيال علمى فقط، بل كوثيقة نقدية تفضح آليات القمع والتهميش، وتتيح لنا، عبر أدوات تحليل الخطاب، أن نعيد التفكير فى علاقتنا بالآخر، والسلطة، والمعرفة، والمجتمع.

المصادر والمراجع

أعرضى، رشـــيد. (٢٠٢٥). تحليل الخطاب الشـــعرى قراءة اتســـاقية لقصيدة أبى العباس الجراوى (٦٠٩هـ) فى وصف معركة الأرک. الأردن: مركز الكتاب الأكاديمى.

بن غالى، ناصر بن عبدالله. (٢٠٢٤). نحو لسانيات عربية اجتماعية من النظرية إلى التطبيق، الرياض: مجمع الملک سلمان العالمى للغة العربية.

توفيق، احمد خالد. (٢٠١٤). يوتوبيا. ط١. القاهرة: دار الشروق.

الزناتـــى، سمر خلف الله. (٢٠٢٤). ترامب وبايدن؛ تحليل الخطاب الصحفى، مصر:دار العربى للنشـــر والتوزيع.

سامح، شريف. (٢٠١٧). الشعارات السياسية: دراسة نظرية وتطبيقية. مصر: العربى للنشر والتوزيع.

الساوى، عبدالحفيظ. (٢٠١٣). الخطاب السياسى للرئيس محمد مرسى: دراسة تحليلية. إسطنبول: دار أصالة للنشر.

الشـــويرخ، صالح بن ناصر. (٢٠٢٣). منهجيات البحث فى اللسانيات التطبيقية. الرياض: مجمع الملک سلمان العالمى للغة العربية.

الشـــويرخ، صالح ناصر. (٢٠٢٥). قضايا معاصرة فى اللســـانيات التطبيقية. الرياض: مجمع الملک سلمان العالمى للغة العربية.

العربى، ربيعة. (٢٠١٩). الخطاب: المحددات واليات الأشغال. الأردن: دار أمجد للنشر والتوزيع.

العلى، بلال موســـى. (٢٠٢٢). لعبة الحقل الرقمى: صراعات الســـلطة والهيمنـــة والتمايز فى حقل التواصل الاجتماعى: توسيع إطار النظرية البورديوية. الإمارات العربية المتحده:

فان دايک، تئون. (٢٠٢٣). الأيديولوجيا والخطاب: مقدمة متعددة التخصصات. ترجمة: ســـعيد بكار؛ لحسن بوتكلاى. الدوحة: المركز العربى للأبحاث ودراسة السياسات.

محمد، سالى عاطف فتح الله. (٢٠٢٣). إعلام الحرب بين الحقيقة والتضليل: حرب اكتوبر. مصر: دار العربى للنشر والتوزيع.

الإنجليزية:

Jawad, F. A.-M. (2023). A Proposed Objective Version of the Ideological Square Theory in Critical Discourse Analysis. مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، ١٥(٦١), ١٠٥٩-١٠٧٤.